

حديث عن المسيحية والإسلام والإرهاب



عندما تصبح الأصولية هي الآلية الأهم للحراك السياسي والمجتمعي ، والعنف هو الوسيلة الوحيدة للتغيير ، فإن هذا يعني عملياً السير إلى الخلف والعودة إلى الوراء بشكل دموي ، مما يجعل الدعوة إلى التغيير في مثل هذه الحالة مدخلاً حتمياً إلى التطرف والإقصاء والعنف الدموي .

التطرف لن يؤدي إلا إلى مزيد من العنف وكذلك هو الإقصاء الذي يُحوّل الوطنية إلى شكل من أشكال النازية ويجعل مقياس المواطنة هو إطاعة أولي الأمر دون تفكير أو أعمال للعقل وذلك من منطلق "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" .

الرعب الذي سببته تنظيمات إسلامية مثل داعش والنصرة والقاعدة من خلال مواقفها المبنية على الإقصاء والتطهير الديني والعقاب الدامي قد سببت حالة متفاقمة من الفزع والرعب بين أوساط المسلمين المعتدلين ناهيك عن العرب المسيحيين وهم سكان المنطقة الأصليين اللذين يتوجب عدم التعامل معهم من خلال تهديدهم أو إقصاءهم وإضطهادهم وكأنهم دخلاء عليها .

العرب المسيحيون هم الأكثر انفتاحاً وثقافة من أبناء المنطقة . والأسباب لا تعود إلى الدين لوحده بقدر ما تعود إلى كيفية ممارسة الدين وإلى القيادات الدينية المسيحية التي كانت على مر العقود الماضية أقل تزمناً وأكثر إنفتاحاً من مثيلاتها من القيادات الإسلامية . هذا بالإضافة إلى أن المسيحية هي دين تشترك فيه عدة حضارات وثقافات متباينة تسمح للسيد المسيح أن يكون أسمر البشرة في أفريقيا وأشقر في أوروبا وهكذا ، في حين أن الإسلام يسعى لأن يكون ديناً وثقافة وحضارة وطريقة حياة وحيدة وواحدة للجميع مما يجعله أداة لصهر كافة المجتمعات الإسلامية ولو قهراً في بوتقة واحدة قد تأخذ شكل دولة الخلافة أو أي أشكال أخرى مما يمهد الأرضية بالنتيجة أمام ظهور وتبلور النمطية الإسلامية الأصولية الطاغية والعابرة لكل المجتمعات والثقافات حتى التي تقبل بها كدين .

إن النمطية في الشكل والملبس التي يختار بعض الأصوليين الإسلاميين والتنظيمات الإسلامية المتطرفة المغالاة في التركيز عليها لتأكيد إسلاميتهم أو أصوليتهم لا علاقة لها في الواقع بالإسلام بشئ . إذ لا يوجد زي إسلامي مثلاً وما كان يلبسه المسلمون أيام الرسول وبعد ذلك كان عبارة عن ما هو متوفر لهم في ذلك الزمان والمكان ولا يوجد أي نص على ضرورة الإلتزام بذلك الزي مثل الجلابية أو الدشداشة طالت أم قصـِـرَت . كما لا يوجد أي نص على إرخاء الذقن كون فن الحلاقة اليومي لم يكن متوفراً في تلك الأزمان . والنمطية التي نشاهدها هذه الأيام هي عبارة عن تسجيل موقف أو قد تكون نوعاً من أنواع الإستعراض السياسي أو شبه العسكري (الميلشيا) . بإختصار ، لا علاقة للنمطية في الملبس أو الشكل بالإسلام . وقد تكون أداة لإستفزاز الآخرين وإخافتهم ، وقد تكون تعبيراً عن موقف متصلب أو الإنتماء لتنظيم ما . ولو كان هنالك أيام الرسول البدلات وربطات العنق مثلاً لربما كنا نشاهد الآن أفواجاً من داعش والنصرة والقاعدة يلبسون البدلات وربطات العنق ويقاثلون بها ، فالمحاكاة قد تكون هي السبب المباشر للنمطية التي نراها وليس الدين .

إذا كان هنالك من يجادل بأن الإسلام دين تسامح ومساواة فإن ذلك صحيح في أصوله ولكن سلوك العديد من القادة الإسلاميين قد لا يعكس ذلك . وفي النهاية ، فإن الممارسة هي المقياس . وممارسة العديد من الإسلاميين الأصوليين للإسلام إبتعدت خلال العقود الماضية بشكل متنامي وطردي عن روح التسامح والقبول بالآخر إلى أن وصلنا إلى حقبة الإسلام المتطرف الإقصائي الدموي الذي فتح الباب أمام ظهور العديد من التنظيمات الإسلامية الدموية التي إكتسبت من خلال دمويتها صفة الإرهاب والتي إقتاتت في مسارها على نتائج الظلم والقهر الذي عانت منه العديد من المجتمعات العربية والإسلامية . في الحقيقة لا يوجد إرهاب إسلامي بل يوجد ظلم وغيظ وفقر وفساد وإستغلال وجهل وهم البيئة الحاضنة للكرهية والإرهاب ، وإستعمال الإسلام إنما هو وسيلة وإطار لتنظيم الآخرين وإستغلالهم في هذا السياق .

إن محاولة التصرف على الأرض بإرادة سماوية هو أمر ينافي أحكام الدين . فالإسلام لا يؤمن بالكهنوت ولا بـُـفـَـوٍص أي جهة أو شخص السلطة لتنفيذ أحكام الدين . فالـُـ يخاطب عباده في القرآن الكريم بقوله "وإدعوني أستجب لكم" ولم يقل مثلاً قولوا لفلان أو علان . فالعلاقة بين الخالق والمخلوق في الإسلام علاقة بسيطة ومباشرة مما يعني أن مفهوم الوصاية أو الوساطة غير قائم في الإسلام ولا يملك أي شخص أو تنظيم الحق في الإدعاء بأنه يمثل الحقيقة وما عداه فهو باطل .

إن تسميم العقل والتلاعب بالعواطف وإستغلال مختلف أشكال الغضب وحالات القنوط والتهديد بالعقوبات السماوية مع تجاهل الرحمة والتراحم والتسامح قد دفع الأمور بإتجاه مزيد من التعصب والتطرف وجعل من الدين عصا للعقاب وليس وسيلة للرحمة والفضيلة والتسامح والتلاحم الإنساني في إطار المثل العليا التي بـَشـَـرَ بها الدين . فالمبادئ الأساسية هي نفسها تقريباً في جميع الأديان والخلاف هو على القليل من تفاصيل العبادة التي قد لا تعني شيئاً أمام عظمة المبادئ المشتركة بين جميع الأديان مما يجعل من موضوع التطرف الديني الإقصائي أمراً لا يمكن إستيعابه أو فهمه من منظور عقلائي أو ديني بحت . إن التركيز على عوامل الخلاف مهما كانت ثانوية وتجاهل عوامل اللقاء والتطابق مهما كانت هامة ورئيسية يعكس أفقاً ضيقاً ونزعة نحو الإقصاء وإستعمال الدين لخدمة أهداف سياسية ودينية قد لا يكون للإسلام علاقة بها .

الأصولية والتطرف الإسلامي ليست ظاهرة طارئة بل محصلة سنوات من التوجيه الخاطئ ومناهج التعليم المـُـوَجَّـهـَ دينياً وكلليات الشريعة المفتوحة أمام أقل الناس كفاءة مما ساهم في خلق أجيالاً من أشباه المتعلمين لقيادة الواجهة الدينية وتوفير الأئمة والوعاظ مما ساهم بالنتيجة في بروز طبقة من علماء الشريعة غير مؤهلة لفهم وإستيعاب ثقافة التسامح والتعددية الدينية التي تتطلب سعة في الأفق وإلماماً بالثقافات العامة وإستيعاباً للحضارة الإنسانية ، بل سـَـعَـتْ إلى تكريس ثقافة إقصائية تسعى إلى فرض الرؤيا الإسلامية المتعصبة والملتزمة والمتطرفة على الجميع بإعتبارها الرؤيا الوحيدة الصحيحة وكل من يعارضها أو ما يعارضها خطأ وكفر وزندقة تستوجب العقاب .

والمسلمين بذلك لا يحق لهم أن يتدمروا مثلاً من مجتمعات أو دول غربية إذا ما إتخذت موقفاً محايداً للإغلبية السكانية المسيحية أو موقفاً معادياً للممارسات النمطية والأصولية للأقلية الإسلامية ضمن مجتمعاتها . فالمسلمين يفعلون نفس الشئ ويستهنون أي نقد لهم بإعتبار أنهم دولة إسلامية أو مجتمع ذا أغلبية إسلامية يحق لها أن تعبر عن نفسها وعن خصوصيتها . أما إذا سادت روح

التسامح الجميع ، فإن ذلك من شأنه أن يقضي على مشكلة الإقصاء والتمييز من جذورها وهي عملية تبدأ في إعادة النظر في مناهج التعليم والدراسات والعلاقات الإجتماعية والثقافة الدينية وتكريس مفهوم المُواطَنَة .

الحنين إلى الماضي والتغني بأيام العظمة والفخار للدولة الإسلامية لا تعني بالضرورة توفر القدرة على إعادتها أو إعادة دورة التاريخ إلى الوراء . فعظمة الأمم لا تأتي بالتمني بل بالعمل الجاد . والإنفتاح هو المفتاح للتغيير إذ أن التغيير والتقدم لا يكون من خلال الإقصاء أو العقاب أو الفرز الطائفي بل من خلال التلاحم والبحث عن نقاط اللقاء بين المكونات المختلفة للمجتمع عوضاً عن التركيز على الخلاف أو الاختلاف.

العودة إلى الأصول تختلف اختلافاً كبيراً عن العودة إلى الخلف . ما نراه هذه الأيام وما نحن بصدده هو دعوة إلى العودة إلى الخلف والتخلف وليس الأصول . فالأصول هي عبارة عن مفاهيم إنسانية وسلوكية مشتركة لا تستدعي الإقصاء والقتل وسفك الدماء ، في حين أن العودة إلى الخلف والتخلف تتطلب جهداً حقيقياً نفسياً وفكرياً وجسمانياً كون المطلوب هو حركة عكس الطبيعة وعكس موروث حضاري جاء نتاج عملية تطور تراكمية على مدى سنين طويلة أساسها تفاعلي إيجابي بين الشعوب والحضارات المختلفة . إن مطلب العودة أربعة عشرة قرناً إلى الوراء هو أمر سياسي وليس ديني ، فالدين لم يتغير والذي تغير فقط هو كيفية تطبيقه سواء من خلال الدولة الإسلامية في مراحلها المختلفة أو من خلال أفراد أو مؤسسات أو أحزاب أو تنظيمات تتكلم جميعها بإسم الإسلام وتحاول إحتكار الحقيقة .

إن غرس قيم الكراهية من خلال الظلم والقهر والإضطهاد الذي يعاني منه العديد من الأفراد اللذين ينتمون بشكل عام للمجتمعات العربية والإسلامية قد ساهم بشكل حاسم في تبلور ثقافة العنف والسعي الواهم للعودة إلى أزمان سحيقة مرتبطة بالذاكرة بأيام العز والفخار والطمانينة مقارنة بالذل والظلم للأزمان الحالية دون أن يعني ذلك أي شئ على أرض الواقع سوى الدمار والعنف والقتل .

إن التطورات الأخيرة في موضوع الإرهاب الديني تدركنا على الإنتماء للمفهوم أكثر من التنظيم . وخطورة هذا التطور أنه يجعل من مطاردة الأفراد المؤيدين والمتعاطفين والملتزمين بهذا التنظيم أو ذاك أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً لأن محاكمة النوايا أمراً غير ممكن طبقاً لمعظم القوانين ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن أي شخص يستطيع منفرداً أن يرتكب ما يريد من أفعال قد تكون دموية أو مُدمِّرة ومن ثم يعلن منفرداً ولاءه لهذه التنظيم أو ذاك ويَنسُبُ تلك العملية له دون الحاجة لأن يكون هنالك بالفعل أي علاقة تنظيمية بين ذلك الفرد والتنظيم المعني . وهذا ما نشاهده في الفترة الأخيرة حيث يتم تحميل الإسلام وزر ما قد يفعله بعض الأفراد من عمليات إجرامية .

إن السماح لتنظيمات متطرفة ومارقة مثل داعش والنُصرة بتدمير الأثر الحضاري للمنطقة وتدمير البنية المجتمعية لشعوب المنطقة العربية بحجة العودة إلى أصول الإسلام هو إلتفاف على الحقيقة ومحاولة بائسة للعبث بالإسلام كدين وبموروثة التسامح القائم على الرأفة والإبتعاد عن الدموية وإقصاء الآخرين . والأهم من ذلك أنها محاولة بائسة لإعادة تفسير الإسلام ودوره من خلال منظور ضيق جداً يتعامل مع الآخرين بإعتبارهم خطراً تتوجب إزالته ويتعامل مع التعددية بأشكالها المختلفة بإعتبارها أمراً لا يجوز السماح به بل يتوجب إلغائها لصالح مجتمع إسلامي واحد ودولة إسلامية ذات نظام شرعي يقبل لنفسه بالإقصائية ويرفضها للآخرين !